النهر والمصب

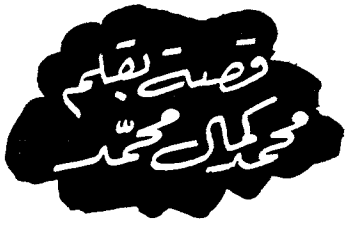

عند محطة القطارات سمع هريدي نداء ابيه ، فقفز من فوق مؤخرة سيارة الاجرة ، قبل ان تقف لانزال ركابها .

في فرحه محمومة أعلنه ابوه بأعجب خبر سمعه : ثمة وفد بأسمهم ظهر فجأة في دمياط والقرية المجاورة .. والاب نازل لتوه من قطار القاهرة بوثائق التمليك ..

وقف هريدي ذاهلا لحظه من الزمن ، يتابع بعينين محملقتين ظهر ابيه ، الذي يهرول نجاه الكوبري الموصل الى بر المدينة ..

ناداه السائق في حنق عند السيارة التي يشتغل عليها صبيا ، ليندس داخل حفيبتها ، بعد ان اكتمل ركابها وزادوا ثلاثة ..

لم يسمع هريدي في مخبئه الكلمات التقليدية التي تبادلها شرطي المرور عند كشكه مع السائق ، وان كان يعرف ان الشلن اخذ طريقه في غمزة الى كف الشرطي ، ليتجاوز عن المخالفة ... كان مشغولا بالخبر الذي سمعه من ابيه ..

وعند موقف القرية التي افرغت فيها السيارة حمولتها ، فتح هريدي غطاء الحقيبة التي امتلأت أرضيتها بنفايات الكابوريا ، ونتنت برائحة السمك الذي يدخلها كل صباح .. ونزل في تباطؤ كأنما تيبست مفاصله ..

دعاه السائق الذي أضاع في الخمر والحشيش خمسة أفدنة وبيتا وثلاث سيارات ، ليشربا زجاجة من الكونياك المخلوط بالسبيرتو الاحمر ... جلسا على دكة مهشمة خلف عشة المقهى الطينية الوحيدة التي يمتد امامها فضاء البراري ، يشربان حتى فرغت الزجاجة ..

وسمح له السائق في نشوته ان يقود السيارة بمينه الحولاء ، حتى ما قبل كشك المرور .. وعاد الى حقيبة السيارة يقبع داخلها ..

وعند محطة دمياط التي عاد اليها ثانية ، نزل هريدي وفي راسه طنين غريب ..

نظر حواليه فخيل اليه ان كل شيء يموج بالغرابة ..!

انسل من جانب السيارة ، والسائق داخل المحطة يشتري من البوفيه علبة سجائر ... في البر المقابل كانت سيارات الاجرة دائبة الحركة ، يتزاحم عليها ركاب المصيف بلا انقطاع ..

وسمع هريدي نداء السائق مرتين فلم يرد .. وسمعه ثالثة بعد سكتة اتسع اثناءها بياض عينه الحولاء ، التي لا يرجى بسببها رخصة قيادة يحلم بها من سنين .. ثم سمع فرقعة المحرك العتيد وهديره الصاخب .. ثم انطلاق السيارة ... زام في نفسه .. ليذهب السائق في الف داهية .. ليغرق هو وسيارته .

خرج من تحت تعريشة الكازينو التي انسرق اليها ليختفي عن عين السائق ... ولمحه قبل ان يزيد من سرعة السيارة ، يلقي عبر الكوبري نظرة جانبية سريعة ، باحثا عنه ، فتوقف .. تطلع نحو الكوبري فاذهشه انه لاول مرة لا يجد في نفسه الجسارة ، بلا سبب مفهوم ، لاجتيازه الى بر المدينه ..

استعار من صبي الكازينو زجاجة اسباتس فارغه تهشم عنقها .. واتجه نحو استراحة عمال القطارات مسرعا ... ومن الدكان المجاور اشترى سبيرتو بقرش ، وعاد الى الكازينو فخففه بالماء ، ثم نزل الى المنتزه المجاور الذي هجره الناس حين جثم على صدره ناديا لا يرتاده احد ..

بعد ساعة عبر الكوبري ، وهو في قمة النشوة ... وقف عند صف سيارات الاجرة في موقفها حذاء النهر .. وغنى وصفق وصرخ : « يا بلد » واطلق النكات .. وحلف انه أطاح بالسيارة لتوه كشك المرور وشرطييه .. واشار الى سيارة النجدة التي تعبر الكوبري ، وزعق مؤكدا انها ذاهبة الى مكان الحادث هناك .. وستلحق بها سيارة الاسعاف لنقل المصابين .. وفهقه في انبساط ، وقال انه كان يحلف بالطلاق من امرأته التي لا توجد ، ان يسكن الشرطيين المستشفى سنة .. وبصوت عريض مزهو قال للسائقين وصبيانهم انه أصبح غنيا .. انه وحيد ابيه.. سيقبض بعد ايام فلوسا ما لها عدد.. وسيضع يده على نصيبه الكبير في الوقف .. ولاول مرة اطمانت نبرات صوته ، وهو يمازح شيخ الموقف السليط اللسان بجرأة وطلاقة.. وزعق في وجهه العابس انه سوف يهديه حزاما يلفه تحت كرشه ليرفع جلبابه الازرق ، بدلا من المنديل المحلاوي العتيد ..

نهره شيخ الموقف في شراسة وسب أباه وامه ، فتراجع واستدار الى آخر سيارة في الصف ، وقبع داخلها يحملق من خلف زجاجها ..

هدا لحظات تلفت بعدها يمينا ويسارا ، فلم يجد احدا ينظر نحوه ، او يتطلع تجاهه .. كلهم اهملوه ونسوه وانشغلوا عنه ، كأنه لم يقل شيئا مثيرا من دقائق فقط ..

شعر بغيظ وضيق ، فادار محرك السيارة العتيقة التي يسخر من صاحبها ، ويزعق خلفه : « ارمها في البحر » ، ورجع بها الى الخلف وعاد الى الامام مرات .. وصرخت آلة التنبيه تحت كفه بعنف .. وهجمت السيارة على رصيف الشاطىء فاعتلته وعادت فنزلت ... ولمح هريدي صديقه عيد قادما ناحية الجامع ، قبل ان يضع قدمه بلا وعي على ضاغط البنزين فتندفع السيارة الى النهر ..

قبل المغرب وجد هريدي صديقه عيد يناديه بصوت خيل اليه انه يأتيه من جوف بئر ... ميز اخيرا كلمات عيد :

ـ ماذا جرى لعقلك يا ولد يا هريدي ..؟

تحرك في رقدته على العشب وحول رأسه الى عيد متسمعا صوته ..

ـ ما الذي جاء بك هنا .. من العصر وانا ابحث عنك .. قال ساعي الجمرك انه راك تمشي في هذه الناحية .. ما هذا الذي فعلته بنفسك ؟

ذكر هريدي في نفسه انه سبح مع التيار حذاء الشاطىء ، بعد ان قفز من السيارة وهي ترتطم بالماء وتنزل الى القاع ... وخرج هناك قبل مبنى الجمرك بأمتار ... والتفت خلفه مذعورا ذاهلا فرأى اللمة على الشاطىء .. وناس تجري هنا وهناك .. مسحت يده بلا وعي الدم الذي يسيل من جبهته وأنفه وفكه المرتعش .. وحبس اكثر من آهة ألم ينبض في ظهره وكتفه ، وقدميه وركبتيه ، وجراح جسده وكدماته ... شعر انه لن يقدر على المشي خطوة واحدة ... لكن الخوف ساقه ليبتعد ، فمشى يعرج بقدميه الاثنتين.. وعلى شريط ضيق بين حقول الارز ومياه النهر المرتفعة في بداية الفيضان ظل ماشيا ، لا يحيد عن الشاطىء الذي يشده اليه ويحدد مساره البطيء .. ونسمة لم يحفل بها ترف على وجهه الملتهب في قيظ اغسطس ، كثيرا ما سعد بها في فضاء البراري ساعة الهجير ..

وجد نفسه عند مشارف القرية الصغيرة قرب مصنع الطوب ، الذي ينفث دخانه الكثيف من مدخنته العالية ... ارتمى على العشب في اعياء يحدق امامه بعينين متعبتين لا تريان ..

ـ تركت اباك هناك مع صاحب التاكسي الذي يظن انك غرقت مع السيارة .. لكنني اخبرت اباك برؤية ساعي الجمرك لك ففرح وأخفى عنهم الخبر ..

التفت هريدي الى عيد ونظر صامتا ..

ـ كتب له ورقة بالتعويض واصلاح التلف .. وسيسافر الرجل مع ناس لاحضار غواصين من بور سعيد ..

رفع هريدي عينيه في الفراغ بنظرة تائهة ..

ـ من اين يأتي ابوك بالفلوس .. لا اعرف كيف فعل هذا .. ربما لخوفه عليك منهم ..

هبط رأس هريدي الى صدره ، يضغطه بذقنه المدببة ..

ـ هل ستبقى هنا الى نصف الليل ؟ قم ..

أطبق هريدي شفتيه .. وظل بلا حراك لا ينطق ..

صاح عيد بغيظ ودهشة :

ـ ولد ! هل أصبت بشلل ؟ هل خرست ؟

رمى هريدي عيد بنظرة غريبة وزام بصوت مخنوق :

ـ اسكت !

ـ والله ! طيب . وهذه قعدة لاشوف ما حكايتك ..!

تربع على العشب ، مسندا كوعيه الى فخذيه ، واضعا كفيه على جانبي وجهه :

ـ هل كنت سكران ؟

رفع هريدي نفسه من رقدته فوق كوعه .. وعاد فتمدد وركن الى الصمت ..

ـ ضحك عليك السائق كالعادة ؟

انقلب هريدي على جنبه .. سأل باكتئاب :

ـ أرأيت أبي زعلانا لما حدث ؟

هز عيد رأسه :

ـ طبعا .. لكن ما يشغلني هو مسألة الفلوس ..

همهم هريدي بعد لحظة :

ـ سيأتي بها من الوقف ..

تجلت في عيني عيد نظرة مشغوفة تحدق في وجه هريدي :

ـ انا لا اصدق كيف هذا ..!

لم يسمعه هريدي وهو يحاول التخلص من مشاعر غريبة تسيطر عليه .. قال بعد فترة :

ـ سنقبض فلوسا كثيرة من الوزارة بعد ايام .. ونتسلم الاطيان ..

ارتفعت الدهشة على وجه عيد ... سأل بعد قليل ونظراته تهوم في رقعة العشب التي تفصل مسافة باردة بينه وبين هريدي :

ـ نصيبك في هذا الوقف كثير ؟

أشار هريدي بحركة من ذقنه الى قرية السنانية في البر المقابل:

ـ لي منه خمس جنابن هناك ..

أخفض عيد رأسه فتخيله هريدي وهو منكفىء على ترابيزة دكان الساعاتي ، ينقب في احشاء ساعة من الساعات المتناثرة على السطح البلوري امامه ((معك شلن يا عيد ؟)) . ((نعم ! يا اخي حلزعني !)) . ((يا بني آدم لم أتغدى)) . ((ما لي انا)) . ((الله يخيبك)) . ((اكثر من الخيبة التي انا فيها ! اشتغل طول النهار بقروش لا تنفع ولا تشفع)) . ((يا عيد ! أليس عندك نوق؟)) . ((لا اعرفه .. ابتعد انت عني)) . ((طيب يا عيد ! قيدها عندك)) .

ويخرج هريدي بخدين تمشت فيهما حمرة تحت الشحوب .. ويعبر واجهة الدكان الزجاجية ، فيسمع عيد ينادي :

ـ يا هريدي تعال ..

يتردد ثم يدخل فيجده ينظر اليه بعين محمرة نزع من محجرها العدسة المحدبة لتوه .. ويقذف الخمسة قروش :

ـ جهز الغداء .. لا تتأخر .. انا أعرفك .. يومك بسنة .. قلبك ميت ..

يضحك هريدي من قلبه !

ـ كله على الله ..

ويمرق بخفة ..

ـ الى متى ستبقى في هذا المكان .. قم ..

ظل هريدي صامتا .. ثم رمى عيد بنظرة تائهة :

ـ عرفت حكاية الوقف ..؟

سكت عيد فترة استغرقتها نظرة طويلة الى وجه هريدي .. وردد بصوت متوتر وهو يدير وجهه :

ـ خمس جنابن في السنانية .. خمس جنابن ..

التفت هريدي بعينيه الى عيد .. ثم حدق عبر النهر نحو القرية التي تنتشر بين دورها حدائق الفاكهة والنخيل .. واسند جبهته الى يده المضمومة المرتكزة على الارض وهمهم :

ـ لا احب المشي عند هذه الجنابن .. الطرقات هناك ضيقة جدا .. والجنابن ملاصقة لبعضها .. صدري يضيق وينقبض في هذه الاماكن ..

غمغم عيد بلهجة تقريرية :

ـ موسم البلح والجوافة بعد ايام .. واللارنج والمانجو والليمون كثير هذه السنة .. هنيئا لك ..

أجفل هريدي وحملق بحدة في وجه عيد مستغربا نبرات صوته.. التقت نظراتهما .. اختلجت شفتا عيد :

ـ أصبحت غنيا ..

شعر هريدي باضطراب ارتجف له جسده ..

نظر اليه عيد متأملا :

ـ مالك !.. اكره ان تكون غنيا ..!

بدا على وجهه اكتئاب لم يلحظه هريدي ، وهو ينظر فيما وراء صديقه بعينين اتسعت حدقتاهما ، وغمرتهما لسماع الكلمة دهشة واستغراب ..

قال بعد فترة صمت حاصره عيد خلالها بنظراته :

ـ الفقر مؤلم ..

تراجع راس عيد بشدة الى الخلف كانما اصابته لكمة من قبضة قوية .. بلع ريقه وسكت ..

ـ كان ابي وامي يتضايقان من وجودي في البيت ..

حدق عيد فوق راس هريدي ..

ـ كانا محتاجين الى الرغيف الذي آكله من خبزهم .. وكنت احاول بمشقة ان اجلب لهما شيئا من الفلوس ..

اطرق عيد وقال بصوت خفيض مكتوم :

ـ المهم الآن انك اصبحت غنيا ..

دارت عينا هريدي في محجريهما للحظة .. وامال راسه كمن يصيخ السمع الى شيء ... بدا له كل ما حوله غريبا .. الحياة ذاتها غريبة .. الدنيا بكل ما فيها .... اظلمت ملامحه مع العتمة الزاحفة بطيئة تتكاثف مع كل لحظة تمر ..

ـ انا ذاهب ..

سمع صوت عيد فانتفض .. والتفت اليه محدقا .. قال بصوت ضعيف :

ـ انا قائم معك ..

ـ سأسبق انا .. لالحق بالقطار ..

ردد هريدي :

ـ القطار ؟ الى اين ؟

تحرك عيد قليلا :

ـ مسافر الى المنصورة .. لاشتغل هناك ..

ـ الليلة ؟ .. لكن لماذا .. الم تعدل عن السفر من ايام ؟

طاف بشفتي عيد شبح ابتسامة تبينها هريدي في العتمة مثقلة بمعان رأى معها شيئا بينه وبين صديقه ينفصم ..

ـ صحيح ..

همس بها عيد .. وارتعش صوته :

ـ كنت اريد ان ابقى بجانبك ..

ـ والآن ؟..

شعر هريدي بصوته غبيا بليدا متخاذلا .. فتيبس حلقه حتى لم يعد يقدر ان يزيد كلمة ..

قال عيد وقد اختفت ابتسامته :

ـ لا اعرف ماذا اريد ان اقول بالضبط .. لكني اشعر الآن انك تطلع الى فوق .. ترتفع ..

حملق هريدي في وجه عيد .. نظر الى شعر راسه .. والى جبهته .. وعينيه .. وانفه .. ثم استقرت نظراته على فمه : « حجزت لك ثلاث سردينات من سردين عربة البرج تعال خذها لتتغذى ـ صاحب الدكان طردني الليلة ، وقعت مني ساعة زبون فانكسر رقاصها ، دكاكين الساعات قليلة في دمياط ، انا متضايق جدا .. لا ادري متى ساشتغل ـ ولد يا هريدي .. هل ذقت خبز بلدنا ؟ عمتي ارسلت مع مجاور المعهد سبعة ارغفة .. عندي لك خمسة .. » .

قال عيد بصوت مضعضع :

ـ كنت لي الصديق الوحيد هنا ..

عاد يقول :

ـ من اجل صداقتنا بقيت في دمياط كل هذه السنين ..

ابتعد خطوات ، فبدا لعيني هريدي كنقطة غائمة ..

وضع كفه على جبهته .. وهبط بها في بطء .. مر وقت طويل قبل ان يرفعها عن عينيه .. تلفت حواليه محدقا خلال الظلمة .. ارتجف فجاة ونادى صديقه وارتفع صوته :

ـ عيد .. عيد ..

اعاد النداء :

ـ يا عيد .. يا عيد ..

لم يشعر انه صاح بملء صوته الا بعد ان احتواه من جديد الصمت المحيط به ... تسحبت الى اذنيه اتات متوجعة ... وشعر برغبة في البكاء ... قام نصف قومة ولم يكملها .. شعر بعجزه عن الوقوف على قدميه ... أحس برطوبة الارض تمس قدمه التي خلع عنها فردة الحذاء .. جثا يفتش عنها في الظلام .. وسمع وشوشة المياه الجارية قرب اذنه ، فخيل اليه انه يراها طافية وسط النهر.. ودخل صوته اذنيه كالعواء :

ـ وقعت في النيل ..

احس بحزن طاغ بعد ان اقتنع بان التيار حملها بعيدا لتضيع.

خيل اليه بعد لحظة انه يرى شبح عيد يشق الظلام قادما نحوه.. صاح يناديه .. لكنه لم يجب واختفى ..

تهاوى كانما سحب من تحته موقع قدميه .. رقد مستسلما والظلمة تشمله وتحتويه ..

شق النهر بجواره مركب يطن محركه في السكون المحدق .. اضطربت المياه وارتفعت الى الشاطىء فلامست قدمه الممدودة الحافية .. فزع واحس انه يفقد نفسه ، ويضيع مثلما ضاعت فردة الحذاء ..

تلوى الخوف في اعماقه ..

خيل اليه ان مياه النهر تحمله هو الآخر وتسرع حتى المصب القريب ، لتلقي به وسط البحر .. حيث لا يستطيع ان يرى شاطئا عن يمينه او شماله ..

محمد كمال محمد

من منشورات دار الآداب

		ق.ل.
اولاد حارتنا (طبعة ثانية)	نجيب محفوظ	٧٥٠
الموت حبا	بيار دوشين	٣٠٠
قصة حب	اريك سيفال	٢٥٠
الجحيم	هنري باربوس	٤٥٠
الثورة الجنسية	جورج بالوشي هورفات	٥٠٠
الموت السعيد	البير كامو	٤٠٠
هيا الى الثورة	جيري روبين	٥٠٠
الاسس الاخلاقية للماركسية	أوجين كامنكا	٥٠٠
النشاط الجنسي وصراع الطبقات	رايموت رايش	٦٠٠
كارل ماركس	روجيه غاروري	٥٥٠
صين ماو او الشوعية الاخرى	ك.س كارول	٦٠٠
تشريح جثة الاستعمار	غي دوبشير	٦٠٠
الوجه الآخر لامريكا	ميكائيل هارنفتون	٤٠٠
القوة السوداء	ستوكلي كارمايكل	٣٥٠
أصول الفكر الماركسي	أوغست كورنو	٣٠٠
الكفاح المسلح	دوغلاس هايد	٣٠٠
هكذا انتصر الفيتنكونج	ريمون نشاطي	٢٥٠
الماركسية والمسألة القومية	جورج طرابيشي	٥٠٠
ثورة كوبا	فيديل كاسترو	٤٥٠
كاسترو يتكلم	فيديل كاسترو	٣٥٠
منعطف الاشتراكية الكبير	روجيه غارودي	٥٠٠